مجلة الباحث – المدرسة العليا للأساتذة الشيخ العلامة مبارك بن محمد إبراهيمي الميلي الجزائري – بوزريعة – الجزائر

المجلد: (17)	العدد: (01)	السنة: 2025	صفحات المقال: 476–493	ISSN :9577 - 1112	EISSN : 2602 -5388

الدراسات البينية وتطبيقاتها على القرآن الكريم، كتاب "النبوة والتواصل" لـــ"عائشة هديم" أنموذجا

Interdisciplinary studies and their applications to the Holy Quran: Aicha Hadim's book "Prophethood and Communication" as a model

صبيحة علالية

جامعة المحمد بوقرة بومرداس، (الجزائر)،

مخبر الخطاب الصوفي في اللغة والأدب، جامعة أبو القاسم سعد الله، الجزائر(2)

s.allalia@univ-boumerdes.dz

تاريخ الإرسال: 2024/10/28 تاريخ القبول: 2025/01/26 تاريخ النشر : 2025/03/31

الملخص:

يتطلع هذا المقال إلى معرفة مدى اقتراب الساحة البحثية العربية من تأسيس تكامل معرفي يسهم في إثراء الدرس اللساني والنقدي العربي، وكذا إبراز دور الجهود العربية تنظيرا وتطبيقا في تحقيق هذا الهدف، وذلك بالوقوف عند جهود واحدة من أبرز المشتغلين على النظريات التداولية والمعرفية على الخطاب القرآني في الساحة الجزائرية والعربية وهي الباحثة "عائشة هديم"، لاستكشاف مدى إسهاماتها في تأسيس نموذج لساني معرفي تكاملي عربي، من خلال كتابها "النبوة والتواصل"، حيث تُطبّق واحدة من النظريات الأساسية في الدراسات البينية، وهي نظرية الملاءمة. تمتد هذه النظرية عبر مجالات متعددة، بما في ذلك البلاغة والأنثروبولوجيا والتداولية المعرفية، حيث تسعى إلى تناول الظاهرة القرآنية بشكل شامل، مع التركيز على قدسية النص القرآني وطبيعته المعجزة وخصائصه الفريدة مقارنة بالنصوص الأخرى.

الكلمات المفتاحية:

الدراسات البينية، التداولية المعرفية، نظرية الملاءمة، التواصل، الاستدلال.

Abstract:

This article aims to examine the extent of Arab research proximity to establishing an integrative knowledge framework that contributes to enriching Arabic linguistic and critical studies. It also highlights the role of Arab theoretical and practical efforts in achieving this purpose by focusing on the researches of Aicha Hadim one of the most prominent researchers in pragmatic and cognitive theories applied to Quranic discourse in the Algerian and Arab studies.

The article explores her contributions to establishing an integrative Arabic cognitive linguistic model through her book "Prophethood and Communication" in which she applies one of the fundamental theories in interdisciplinary studies, namely the theory of relevance. This theory spans multiple fields, including rhetoric, anthropology, and cognitive pragmatics, as she aims to comprehensively address the Quranic phenomenon, focusing on the sanctity of the Quranic text, its miraculous nature, and its unique characteristics in comparison to other texts."

Keywords:

Interdisciplinary studies; Cognitive pragmatic; Relevance theory; Communication; Inference.

المجلد: (17)	العدد: (01)	السنة: 2025	صفحات المقال: 476–493	ISSN :9577 - 1112	EISSN : 2602 -5388

1. مقدمة:

يُعد الاهتمام بالتكامل المعرفي في اللغة العربية من الدوافع الخلّاقة لاستشراف الدرس اللساني والنقدي والأدبي العربي وتطويره، وقد برز هذا أكثر في الآونة الأخيرة مع ميل الباحثين إلى سبر أغوار المناهج الغربية البَينية وعلى رأسها اللسانيات المعرفية، التي تستمِد وتُمِد أساساتِها من العلوم المعرفية المختلفة (علم الأعصاب، علم النفس المعرفي، علم الاجتماع المعرفي، الذكاء الاصطناعي، الحاسوبية...إلخ)، حيث أحدثت المقاربة المعرفية للغة العربية قفزة نوعية على الرغم من حداثة البراديغم وغموضه، وساهمت في المزيد من الكشف عن أسرار العربية من وجهة معرفية ذهنية.

وتأتي جهود الباحثة الجزائرية **"عائشة هديم"*** نموذجا يصب في هذا المسعى عبر دراستها المنهج التداولي المعرفي الذي تبلور في مؤلفاتها وأبحاثها العديدة، والذي يُعدّ منهجا بَيْنيًّا متعدد الاختصاصات. ويهدف هذا البحث إلى استقراء جهودها من خلال كتابها: **"النبوة والتواصل، مقاربة معرفية لتجربة أولي العزم من الرسل"** حيث اشتغلت فيه على نظرية غربيّة بارزة في المعرفة والتواصل هي **"نظرية الملاءمة"** من خلال تطبيقها على النص القرآني، لذلك نسعى لمعرفة الكيفية التي طبقت بها هذه النظرية التي تمتد على مجالات معرفية واسعة على غرار: التداولية المعرفية، والبلاغة المعرفية، والأنثروبولوجيا المعرفية.

من أجل الإجابة عن الإشكالية التالية: **كيف أسهمت الدراسات البينية في تقديم قراءة جديدة للنص القرآني، من خلال كتاب "النبوة والتواصل" للباحثة "عائشة هديم"؟**

بالإضافة إلى بيان جهودها في التقعيد المنهجي للتداولية المعرفية وتطويع المناهج المعرفية والبينية للمتلقي العربي تنظيرا وتطبيقا، وتجسيدها التكامل المعرفي من هذه الزاوية، وكذلك دورها في تعميق فهم لغة الخطاب القرآني انطلاقا من مقاربته بمثل هذه النظريات، من خلال جهودها في تطبيق نظرية الملاءمة بما تقدمه من انفتاح كبير على ميادين معرفية متنوعة وما تعوّل عليه من تفعيل للطاقة الذهنية والاستدلالية للمتلقي.

2. التكامل المعرفي والتداولية المعرفية:

تجسد التداولية المعرفية ذلك التكامل المعرفي في دراسة الخطابات بأنواعها لأنها تسلط الضوء على المصدر النفسي والذهني لانبثاق اللغة، في إطار التواصل اللساني وغير اللساني بمختلف أشكاله الإقناعية (الكلام، الحجاج، الحوار..).

وتعد نظرية الملاءمة ــالتي نهضت على أفكار فيلسوف اللغة الإنجليزي: "بول غرايس"ــ، من نظريات التداولية المعرفية الأكثر شمولا لأنها تتقاطع مع علم النفس المعرفي وتستعين بمقولاته مثل نظرية المنظومية[1] التنافسية لدان سبربر[2]، التي وضح فيها معمارية الذهن، كما تهتم بالتواصل والاستدلال وبناء المعرفة، وكذلك بالبلاغة

المجلد: (17)	العدد: (01)	السنة: 2025	صفحات المقال: 476–493	ISSN :9577 - 1112	EISSN : 2602 -5388

المعرفية عن طريق رؤية جديدة للمحتويات الصريحة والضمنية للخطاب، وبالأنثروبولوجيا في سعيها للكشف عن سر تداول الأفكار والمعاني وانتشارها.

وفي ذلك يقول "دان سبربر" و"دايدر ويلسن" مؤسسا هذه النظرية: "لقد نوقش التحليل الغرايسي للتواصل بصفة تكاد تكون حصرية، من قبل الفلاسفة، حيث كان الانشغال الرئيس هو تحديد مفاهيم ألفاظ: "الدلالة " أو "التواصل" من وجهة نظر نفسية خاصّة، وهي الوجهة التي نتبناها، فإن تعريف التواصل ليس المهمة الأساسية، بل إنه ليس من المؤكد أن التواصل يشمل مجموعا قائما بذاته، ومنسجما من الظواهر التجريبية. إن هدفنا هو تشخيص الميكانيزمات المتضمّنة، والمتجذّرة في النفس الإنسانية، والتي تفسِّر كيف يتواصل الناس فيما بينهم. "[3]

تبين هذه المقولة زاوية التناول من جهة، وتبين كذلك أن الباحثَيْن ينظران للتواصل بوصفه ظواهر متعددة، لا ظاهرة واحدة منسجمة، وهذا يتطلب اشتغالا متعدد التخصصات. وبذلك يعد هذا التوجه المنهجي من الدراسات البينية الهامة والمثمرة.

وقد حاولت الباحثة "عائشة هديم" بيان هذا التكامل المعرفي لهذه النظرية وفعاليتها في توطين إجابات ذات صلة بزوايا مختلفة للخطاب اللغوي وغير اللغوي بصفة عامة. وسنتطرّق في هذا البحث إلى أبرز هذه الزوايا من خلال تطبيقها على الخطاب القرآني.

3. الاستثمار المنهجي متعدد التخصصات في "النبوة والتواصل":

اهتمت الباحثة "عائشة هديم" في كتابها "النبوة والتواصل" بعدّة نظريات ضمن رؤية منهجية تؤمن بها[4] على غرار نظريات العاطفة والذاكرة في علم النفس المعرفي، ولكنها استندت على نظرية محورية هي نظرية الملاءمة التي تنسحب _كما سبقت الإشارة_ على مجالات أخرى هي: التداولية المعرفية والبلاغة المعرفية والأنثروبولوجيا المعرفية، وهي بذلك تحقق الرؤية متعددة التخصصات التي نادت بها العلوم المعاصرة، حيث تقول في مقدمة الكتاب: "هذا البحث وجهة نظر **معرفية** تستوجب اشتغالا متعدد التخصصات والعلوم، وقد رأينا أن نختار من جملة العلوم المعرفية، العلوم التي يمكن أن تجيب على الإشكاليات والفرضيات المطروحة، والتي تتناسب مع طبيعة النص المشتغل عليه، وتراعي خصوصيته وتميزه."[5]

أي أن الباحثة راعت في اشتغالها بهذه النظريات خصوصية اللغة العربية عموما وعربية القرآن بوجه خاص. لكن قبل أن نعرض خصوصية تطبيق الباحثة لمقولات الملاءَمة نعرج أولا على بيان عرضها لماهية الملاءمة.

1.3 نظرية الملاءمة ماهيتها ومجالاتها:

اشتغلت الباحثة في كتابها "النبوة والتواصل" بنظرية معرفية رائدة على نص عربي محوري في الثقافة العربية والإسلامية هو القرآن الكريم[6]، إنها نظرية الملاءمة لكل من: الأنثروبولوجي الفرنسي "دان سبربر" واللسانية الإنجليزية "دايدر ولسن" اللذيْن استلهما مفهوم الملاءمة من أفكار "بول غرايس" (مبدأ التعاون) حيث أقر

المجلد: (17)	العدد: (01)	السنة: 2025	صفحات المقال: 476–493	ISSN :9577 - 1112	EISSN : 2602 -5388

"غرايس" بأن تحقق التواصل يكون بالتعرف على القصد[7]، وأسسا مقولاتها انطلاقا من تطوير مقولاته حول الاستدلال[8]، بالإضافة إلى نقدهما لنموذج السنن الذي شاع في الدراسات اللسانية الكلاسيكية[9]. أي أن نظرية الملاءمة انطلقت من تطوير مقولات "بول غرايس" التداولية بإضفاء رؤيتهما المعرفية عليها.

حيث يعرفان الملاءمة بأنها: "محددة بوصفها خاصية لمداخل السيرورات المعرفية (سواء كانت منبها خارجيا، يمكن أن يُدرَك أو يكون محل انتباه)، أو تمثلات داخلية، يمكن أن تخزن أو تسترجع أو تستخدم كمقدمات في الاستدلال." [10]

بمعنى أن الملاءمة _كما تشرح الباحثة_ خاصية ذهنية تجري على مستوى الذهن من خلال استقبال أو استعمال أو تخزين المعلومات الداخلية والخارجية ومعالجتها بانتقائية متناسِبة مع المنبهات، أي حسب ما يلائم السياق، الذي عُزِّز في الرؤية المعرفية الجديدة من مجرد كونه سياقا مقاميا أو لغويا صِرفا إلى محيط معرفي شامل[11]، حيث يحتوي هذا المحيط على افتراضات بارزة وغير بارزة، فالأشياء المادية وغير المادية الموجودة في محيط التخاطب هي وحدات معرفية يُعبّر عنها "سبربر" و"ولسن" بمصطلح "الافتراضات" أو "التمثلات" وتجري كلها على مستوى الذهن. فيصبح التواصل متحققا إذن حينما يستطيع المتخاطبون تغيير المحيط المعرفي لبعضهم البعض، "والمحيط المعرفي لفردين، هو تقاطع لمحيطيهما المعرفيين الشاملين، أي جملة كل الوقائع البارزة لكليهما، ولكن بما أن القدرات الذهنية متفاوتة وتمثلات الأشخاص للفضاء أو المحيط مختلفة فإن الأفراد لا يشتركون إلا في محيطات معرفية جزئية." [12]

من خلال هذا المقطع يمكن استنتاج مكونات السياق المعرفي وهي:

- المحيط الفيزيائي بكل ما فيه (المقام).
- الملفوظات (الخطاب).
- مكونات الذهن (فرضيات، معلومات موسوعية، ملكة لغوية، رصيد معجمي، آليات منطقية، أحكام مسبقة...).

حيث تتدخل كل هذه المكونات في إنتاج الدلالة وتأويلها عبر مبدأ الملاءمة.

إذن الملاءمة هي نظرية "تداولية معرفية وهي تنتمي للعلوم المعرفية الإدراكية جمعت بين نزعتين متنافرتين، إذ تقوم بتفسير الملفوظات وظواهرها البنيوية في الطبقات المقامية المختلفة، وفي الوقت نفسه نظرية إدراكية استطاعت الدمج بين مشروعين معرفيين، الأول من حقل فلسفة اللغة والنظرية الحوارية "لبول غرايس" والثاني من حقل علم النفس المعرفي." [13] وبذلك تجسّد هذه النظرية التجاسر المعرفي بين حقول معرفية متعددة عن طريق تطوير النظرية التداولية اللسانية النابعة من فلسفة اللغة وعلم النفس المعرفي، فالملاءمة تسلط الضوء على اللغة باعتبارها خاصية ذهنية ونفسية معرفية .

المجلد: (17)	العدد: (01)	السنة: 2025	صفحات المقال: 476–493	ISSN :9577 - 1112	EISSN : 2602 -5388

وللملاءمة مبادئ وشروط:

1) مبادئ الملاءمة:

1/ "المبدأ المعرفي للملاءمة: تترع المعرفة الإنسانية لمضاعفة الملاءمة.

2/ المبدأ التواصلي للملاءمة: كل فعل تواصل صريح يُبلّغ افتراضه الخاص لملاءمته القصوى."[14]

فالملاءمة ترتكز على التحصيل المعرفي من خلال استنباط أكبر قدر من الفرضيات الملائِمة في السياق المعرفي من جهة، وكذلك تميل إلى تفعيل إمكانات التواصل الأمثل من خلال كون التواصل ذاته يحمل في طيّاته مؤشرات الملاءمة القصوى.

2) شروط الملاءمة: "لكي تكون المعلومة ملائمة يجب أن تتوفر على شرطين :

1 /يجب أن تكون للمعلومة آثار سياقية.

2/ كلما كانت الآثار السياقية كبيرة كلما كانت الملاءمة كبيرة."[15]

تتعلق الملاءمة **بالأثر** الذي تحدثه في السياق (المحيط المعرفي للمتخاطبين) بفعل سيرورة استنتاجية من معالجة المعلومات في أذهانهم، حيث تقول الباحثة "هديم": "ومن ثم يخلص "سبربر" و"ويلسن" إلى صياغة هذين الشرطين لتحقيق مبدأ الملاءمة:

- كلما كانت الآثار السياقية هامة، كلما كانت الفرضية ملائِمة.
- كلما كان الجهد الضروري لمعالجة المعلومات ضعيفا، كلما كانت الفرضية ملائمة."[16]

توضح الباحثة في صفحات كثيرة من الكتاب كيف أن "سبربر و"ولسن" اتخذا من هذا المبدأ البسيط ظاهريا المعقد (ذهنيا) أساسا لقراءة وفهم استدلالات البشر وردود أفعالهم، حيث إن الذهن البشري يترع بفطرته إلى ما يراه ملائما معرفيا وتواصليا فهو كائن معرفي يميل إلى تحقيق معرفة أكبر وأكثر ملاءمة، كما أنه كائن تواصلي يحتاج إلى إنشاء سبل سهلة وناجعة في عمليات التبليغ والتواصل.

وبما أن هذه النظرية هي نظرية في المعرفة والتواصل معًا فقد اختارت الباحثة حوارات القرآن الكريم مشتغلة على مدونة واسعة منها، تتعلق بالرسل أولى العزم وأقوامهم، لبيان طاقاتهم الذهنية المعرفية (الاستدلال) المتجلية في توظيفاتهم اللغوية (التشفير) ففي الحوار تتجلى القدرات التواصلية والخلافات والاختلافات بين المتخاطبين لذا فالحوار أفضل مَعين لاختبار نجاعة مبدأ الملاءمة باعتباره مبدأ تواصليا بامتياز.

وسنحاول في ثنايا هذا البحث تبيان البصمة التي وضعتها الباحثة بالانتقال من البحث في مستوى اللغة على رقعة الشطرنج (الاتجاه البنيوي والتوليدي) أي الاقتصار على دراسة اللسان وحده تركيبيا ودلاليا (التشفير)، إلى رحاب اللغة داخل معمل الذهن ونعني به (الاستدلال ودوره في بناء التمثّلات).

المجلد: (17)	العدد: (01)	السنة: 2025	صفحات المقال: 476–493	ISSN :9577 - 1112	EISSN : 2602 -5388

2.3 وبائية التمثلات، أنثروبولوجيا أعماق النصوص:

سحب "سبربر" مبدأ الملاءمة على مجال الأنثروبولوجيا من خلال نظرية "وبائية التمثلات"[17]، وقد وظّفت الباحثة مقولات هذه النظرية على القصص القرآني وتوصّلت إلى تحليلات مُهمة؛ حيث تقول في كتابها: " إن المجتمع الإنساني —حسب سبربر– مأهول بمجموعة أكثر اتساعا من التمثلات الذهنية من كل الأنواع: اعتقادات، ومهارات، ومشاريع، ومقاصد ...إلخ، فالسلوكات الفردية مخارج لسيرورات ذهنية، وتُسببها جزئيا التمثلات الذهنية للفرد."[18]

وتقصد أن سيرورات التواصل البشري مَكّنت من توالي تمثلات ذهنية فردية متنوعة ولا حصر لها، مكّنت هي الأخرى من تمثلات عامة لا حصر لها، هذه السيرورات توصف بأنها سببية أي أن إحداها تُسبب الأخرى في سيرورة غير منتهية: ولهذا تقف هذه النظرية على مصطلح رئيس هو:" السلاسل السببية"، حيث تقول الباحثة في موضع آخر: "إن الإنتاجات العامة للفرد يمكن أن تزودنا بمدخل للسيرورات الذهنية للفرد أو لعِدة أفراد آخرين وبصفة خاصة، لبناء التمثلات الذهنية عندهم، هذه التمثلات يمكن بدورها أن تسبب إنتاجات عامة، والتي يمكن أن تسبب بناء تمثلات ذهنية عند أفراد وهكذا دواليك. إذن فالمجموعة الإنسانية تجتازها سلاسل سببية حيث تتعاقب تحولات ذهنية وتحولات محيطية حيث أن بعضها تسبب الأخرى"[19]. هذه الإنتاجات العامة أطلق عليها "سبربر" مصطلح "التمثلات العامة"[20].

ولا شك أن توالي وتناقل هذه السيرورات التَمثُّلية سريع ومكثف بين أفراد الفئة البشرية مما جعل "سبربر" يسمها بالوبائية، أي أنها تنتشر في المجتمع انتشار الأوبئة"[21] وهذا ما تشرحه الباحثة في كتابها بالتفصيل من خلال نماذجها التطبيقية على الخطاب القرآني.

التقطت "عائشة هديم" هذه الفكرة المحورية وأبرزت من خلال لغة القرآن الكريم التسلسل التأويلي والتاريخي لتطور الذهن لدى الأقوام (تطور تمثّل المعتقد الديني) بالوقوف على محطاتهم الثقافية من أبكر عهود الوجود البشري إلى قوم خاتم الأنبياء محمد صلى الله عليه وسلم، وسنقتصر هنا على مثال واحد هو نموذج قوم بني إسرائيل في المرحلة البابلية والكنعانية والمصرية، حيث تجلى الشرك من خلال عبادة الأوثان: (العجل عند المصريين، الترافيم عند الكنعانيين، والثور المجنّح عند البابليين)[22]، وترى الباحثة في تحليلها أن الإنسان في مراحل متقدمة من الوجود البشري كان يتصوّر العالم كله بأشياء مادية يصنعها بيديه، فكانت هذه النزعة التجسيدية ملائمة لفكرة الإله المتجسد، لذلك شكّله تشكيلا مادّيا عبر نحته في مجسّمات، إذ تقول: " فكان فنّ النحت أنسب الفنون لمقاربة هذه الفكرة فتكرست منظومة بصرية–غير لغوية، وفي إطار هذه المنظومة يجب أن يكون الإله متجسدا مرئيا، ولّما لم يجد الإنسان القديم هذا الإله متجسدا صنعه بنفسه مشبعا إيّاه بتمثلات ذهنية مختلفة، وكانت هذه (كما أعتقد) أكبر فكرة ملائِمة سيطرت على مر العصور."[23]

المجلد: (17)	العدد: (01)	السنة: 2025	صفحات المقال: 476–493	ISSN :9577 - 1112	EISSN : 2602 -5388

وتورد الباحثة كيف حلّت سورة طه صناعة قوم موسى عليه السلام للعجل، قال تعالى: ﴿**قالُوا ما أَخْلَفْنا مَوْعِدَكَ بِمَلْكِنا وَلكِنَّا حُمِّلْنا أَوْزارًا مِنْ زِينَةِ الْقَوْمِ فَقَذَفْناها فَكَذلِكَ أَلْقَى السَّامِرِيُّ (87) فَأَخْرَجَ لَهُمْ عِجْلًا جَسَدًا لَهُ خُوارٌ فَقالُوا هذا إِلهُكُمْ وَإِلهُ مُوسى فَنَسِيَ (88)**﴾ [سورة طه:87-88].

تتجلى فكرة الملاءمة لدى قوم سيدنا موسى بعبادتهم للعجل على غرار قوم سيدنا نوح بعبادتهم صور الصالحين وقوم سيدنا محمد في عبادتهم للحجر، لأن فكرة حلول الله في المادة كانت أكثر فكرة ملائمة لطاقاتهم التمثُّلية الذهنية بسبب طغيان منظومة البصر: تقول الباحثة: " كما نلحظ من خلال هاته السلاسل طغيان المنظومة البصرية لدى هؤلاء الأقوام، إذ تشير أسماء الإشارة (هذا وهذه) وفعل (كان) في قول السامري: "هذا إلهكم فنسي" وقول الأبناء/أو الشيطان: ما اتّخذ هذه آباؤنا إلا أنّها كانت آلهتهم فعبدوها" وقول عمرو بن لحي: (كان ربّكم اللاّت فدخل)، إلى وجود متعيّن مرئي."[24]

تتبعت الباحثة السلاسل السببية لبنى المعتقد لدى اليهود وخلصت إلى تجسيد هذه السلاسل:

تمثلات مادية ← **تمثلات عامة** ← (الانبعاث الحلول، التجسيد)

(العجل، البعل، الكيروب)

موروثة من الأمم العربية والبابلية والكنعانية

المرحلة 01:(**سلسلة 01**) "**اجعل لنا إلها كما لهم آلهة**": **نسق التقليد**:[25]

إعادة صياغة للتمثلات الذهنية السابقة في تمثل عام هو:

التوراة، التلمود اليهودي (بعد دخول كنعان).

السلسلة (2): صياغة النسق الديني: طغيان وانتشار التلمود كتمثل عام[26]:

طغيان الطبقة الحلولية من خلال تيارات.

الطقس (التمثل المادي) المنفصم عن التمثل الذهني.

صراع بين ← التوراة

صراع بين ← التلمود

مفهوم التمثلات المادية (العامة) والتمثلات الذهنية:

يقسم سبربر التمثلات إلى نوعين:

التمثلات الذهنية: وتشمل الاعتقادات، والمقاصد، والخيارات.

التمثلات العامة: وتشمل: الأدلة، والملفوظات، والنصوص، والصور، وتتخذ مظهرا ماديا.[27].

المجلد: (17)	العدد: (01)	السنة: 2025	صفحات المقال: 476–493	ISSN :9577 - 1112	EISSN : 2602 -5388

تخلص الباحثة بعد تحليل هذا النموذج إلى القول: "إنّ الهدف الأساسي من الوقوف –ولو وقفة وجيزة– عند أحد أبرز أفكار التراث القبالي[28]، هو تأكيد تواصل التمثّل الذهني في النسق الديني اليهودي وترسخه، منذ أن عبدوا العجل إلى أن عبدوا أنفسهم (باعتبار أنّهم يعتقدون أنهم جزء من الإله)، وأنه بالإمكان أن يبقى التمثل الذهني نفسه مع اختلاف في التمثلات العامة (عجل، بعل، الشعب)."[29]

وهنا تحيلنا الباحثة "عائشة هدبم" إلى تبنيهم فكرة الجهد الأقل، فقد بيّن استقصاؤها الحثيث في كتاب (النبوة والتواصل) أن الأقوام لم يمارسوا جهدا في الوصول إلى تمثّل التوحيد وإنما اكتفوا بتبنّي التصورات التي انتقلت إليهم بفعل سلاسل سببية طويلة من الآباء والأجداد مخلّفة آثارا سياقية تجلت في أساطير وطقوس وتمثلات عامة متنوعة، إلى أن تقول: "إن الفكر الأسطوري الذي هيمن على طول الحضارات وانتشار الصنم (كتمثل عام) مكّن لفكرة الجهد الأقل، حيث يتم تبني المعتقدات السابقة، وتسند إليها حُجيّة وثقة معرفيتين عاليتين لأنها نابعة من الجماعة (الآباء الأولون)."[30] ولهذا تَكرّر في القرآن الكريم آيات ضلال الأقوام باتباعهم آباءهم الأولين، قال تعالى في سورة الزخرف: ﴿ **بَلْ قَالُوا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ آثَارِهِم مُّهْتَدُونَ**﴾ [الزخرف: 22].

يتجلى لنا من خلال ما سبق وبمثل هذه النتائج التي توصّلت إليها الباحثة في مؤلّفها، نجاعة التوظيف المعرفي البيني في تأويل الخطاب القرآني من خلال مقاربته مقاربة أنثروبولوجية معرفية تنطلق من البُنى اللغوية للآيات وتغوص في أعماقه إلى محاورة مفاهيمه التي يريدنا الله أن نصل إليها بالتدبّر (الاستدلال). وهذا يؤكد عدم كفاية نموذج السنن في تحديد الدلالة.

3.3 للسان عقل: البلاغة من وجهة نظر الملاءَمة:

تناولت الباحثة بمقاربتها المعرفية الجانب البلاغي للنص القرآني متبنّية نموذج الاستدلال، تقول: "حيث نسوغ الملاءمة على مستوى لساني بلاغي، ونبين كيف أن تبني نموذج الاستدلال أكثر معقولية من نموذج السنن، وبخاصة أن النص المدروس نص قرآني، يستدعي إعمال العقل في استخراج معانيه، والوصول إليها من خلال عملية استدلالية، يتضافر فيها المستويان الحرفي وغير الحرفي، والصريح والضمني، ولا ينكفئ النص على عملية بسيطة: السنن / فك السنن."[31]

إن اختيار الباحثة لهذا النموذج المعرفي يُجلّي رؤاها في تجاوز الدراسات اللسانية التقليدية التي تدور حول شفرات النص المغلق إلى رحاب عوالم إنتاج تمثلاتنا لهذا النص، وإذ ذاك لابد من مراجعة المفاهيم التقليدية المكرسة وعلى رأسها مفهوم الصريح والضمني والحرفي وغير الحرفي والتقريري والمجازي، حيث تخلُص في مثال حوار سيدنا نوح مع قومه كما في قوله تعالى: ﴿ **لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ فَقَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ**﴾[الأعراف: 59]، إلى القول: إن "هذه المضامين الضمنية تندرج ضمن الضمنيات التي يريد المتكلم من المخاطب (نوح مع قومه) أن يعيد تشكيلها بالتحديد، فسيدنا نوح يدعو قومه إلى

المجلد: (17)	العدد: (01)	السنة: 2025	صفحات المقال: 476–493	ISSN :9577 - 1112	EISSN : 2602 -5388

التوحيد، وهو يحارب الشِّرك، ومن ثَمّ فهو يريد أن يتوصّل قومُه إلى فهم هذا المضمون بالضبط الذي يقترب كثيرا من الصريح، فمن الواضح أن الدعوة لعبادة الله تعني تخليا عن عبادة الأوثان، وهو يريد إيقاع أقصى أثر سياقي وهو إلغاء فكرة أو معتقد الشرك.[32]"

تشرح الباحثة في إطار نظرية الملاءمة أن المحتويات الصريحة والضمنية بما فيها المجاز والاستعارة والسخرية، تفهم انطلاقا من عملية استدلال ذهنية فلم يعد فهم الصريح يفسر بكونه تفكيكا لمعاني وحدات عبارة مسننة، والضمني بأنه استلزام حواري يستدل عليه عندما تخرق أحد قواعد التعاون كما يذهب إلى ذلك "غرايس"،[33] وإنما فسّرهما "سربر" و"ولسن" بأنهما يصُبّان في إجراء ذهني واحد هو الاستدلال الذي يُعاز بتطبيق مبدأ الملائمة واستغلال الفرضيات السياقية التي يراها السامع أكثر بروزا وملاءمة[34]، حيث تُوضِّح: " وباستخدام المستمع **لإجراء الملاءمة النظري للفهم** واتباع طريق الجهد الأقل، يبلور معنى الجملة التقريبي المسنّن، ويصل بينه وبين الافتراضات السياقية المتاحة، ويضمن استخلاص نتائج كافية لجعل الملفوظ ملائما بالطريقة المتوقعة.[35]"

ثم إن المحتويات الصريحة والضمنية تأتي على درجات_ كما هو مبيّن بنماذج عديدة في الكتاب[36]_، حيث يقترب أو يبتعد الصريح من الضمني في الاستعارة حسب درجة إبداعيتها[37] ودرجة المشابهة[38]، كما يقترب أو يبتعد في السخرية، حسب درجة المحاكاة[39]، وذلك جلي في القرآن الكريم وله مسوغاته المحكمة، تضرب الباحثة مثالا عن ذلك في سياق قوله تعالى: ﴿**وَأَعْتَزِلُكُمْ وَمَا تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ وَأَدْعُو رَبِّي عَسَىٰ أَلَّا أَكُونَ بِدُعَاءِ رَبِّي شَقِيًّا**﴾[سورة مريم:48]: " المحتوى **المسنّن** لهذه الآية هو: الإخبار بالاعتزال، ولكن الآية تريد تبليغ **مقصد** أبعد من هذا وهو الإلماع بطريق **خفيّ إلى شقاء قومه** بدعائهم لآلهتهم، وهو مضمون يتحمّل مسؤولية تأويله **المخاطب** (وأقصد بالمخاطب هنا المخاطب **الموسّع** القوم، القارئ، المفسر)، لأنه مضمون **ضمني ضعيف**."[40]

وتلفت في رؤيتها المعرفية بعد عرضها لفحوى النظرية أن لغة القرآن تحفل بمعان صريحة وضمنية لا يجب الوقوف عندها وقوفا بنيويا تقليديا، بل يجب قراءتها انطلاقا من هذا المبدأ (الملاءمة) لأن القرآن كلام إلهي لم يتنزل بتلك الصيغ البلاغية إلا لنتدبر ما تُبطّنه من طبقات من المفاهيم والمعاني البليغة المبَلِّغة، ولا يسعفنا المقال لذكر أمثلة تحليلية عديدة من كتاب الباحثة، لذا نكتفي في هذا السياق بذكر تحليلها لواحدة من الاستعمالات غير الحرفية وهي **الاستعارة** في قول الله تعالى: ﴿ **قَالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي وَآتَانِي رَحْمَةً مِّنْ عِندِهِ فَعُمِّيَتْ عَلَيْكُمْ أَنُلْزِمُكُمُوهَا وَأَنتُمْ لَهَا كَارِهُونَ**﴾ [سورة هود: 28].

ترى الباحثة أن هذه الاستعارة لا تؤوّل بالنظرة التقليدية التي تقوم على المشابهة بين اللفظ الحرفي والاستعاري ولكن على تشابه الاقتضاءات السياقية، بقولها: " إن "الحُجّة" و"الأعمى" أو "العمياء" متفارقان تماما في عوالمهما ولا تشابه بينهما في أصل وجودهما، فما الذي يجعل الحُجّة وهي شيء ينتمي لعالم معنوي فكري تشبه الأعمى وهو إنسان؟ إن التشابه في الحقيقة يتأتى من التأويل الاستعاري **وفق الاقتضاءات** التي يمليها السياق."[41]

المجلد: (17)	العدد: (01)	السنة: 2025	صفحات المقال: 476–493	ISSN :9577 - 1112	EISSN : 2602 -5388

وتستخرِج هذه الاقتضاءات بالتفصيل إلى أن تصل إلى القول: " فإذا اعتبرنا أن **الحجّة** التي يستخدمها سيدنا نوح مرادة **ليهتدي قومه إلى طريق الحق كان التأويل المتناسب مع مبدأ الملاءمة** أن نُرشّح من جملة الاقتضاءات الفرعية للأعمى والحجة: اقتضاء: عدم الاهتداء، وهو واحد فقط من الاقتضاءات التي تستلزمها مداخل كلتا اللفظتين."[42]

ترى الباحثة أن من جملة هذه الاقتضاءات في كلمة **عمّيت** (التي هي مكمن الاستعارة) أنها تحتوي في الذاكرة الموسوعية مجموعة من الخصائص الجسمانية، فهي تحيل إلى إنسان له وجود مادي ومعنوي يعاني نقصا جسمانيا هو حاسة البصر وبالتالي يمنعه ذلك من معرفة الطريق، فضلا عن كونها جاءت في آية تؤوّل في سياق معرفي محدد باعتبارها وجودا معنويا يراد به الإقناع وتعزيز الحجة.[43]

إن مثل هذا النوع من تحليل لغة القرآن يعتبر ثوريا لأنه يجعل من التأويل نشاطا متوالدا ومنضبطا في الوقت ذاته، فهو لا يتوقف عند دلالات سطح النص ولا يتطرف إلى حدود بعيدة، وميزة ذلك هو تأسيس الاستعارة على الاقتضاءات الملائمة وآثارها السياقية المعرفية لا على مشابهة مسبقة فالمشابهة نتيجة وليست مبدأ، وهذا هو تصور أغلب النظريات المعرفية المعاصرة حول الاستعارة على غرار نظرية الاستعارة المفهومية ونظرية الفضاء الذهني والمزج التصوّري وغيرها...

يعد كتاب "النبوة والتواصل" مصدرا لاختبار فاعلية التصور المعرفي الجديد على اللغة العربية وعلى لغة القرآن البلاغية على وجه خاص، فمن خلال عشرات الأمثلة التحليلية استطاعت الباحثة أن تبيّن لنا الفروقات الذهنية الجوهرية بين الاستعمالات اللغوية بين الأنبياء والأقوام التي عرضها القرآن، والأسباب الذهنية والمعرفية والعاطفية لهذه الاختلافات، مُثبتة أن الآفاق البلاغية في حقيقة الأمر تتجاوز الحدود السَّننية للخطاب.

4.3 التداولية المعرفية: الملاءمة والحجاج:

يرتبط الحجاج في التداولية المعرفية حسب ما جاء به "سبربر" و"ولسن" في نظرية الملاءمة بنشاط التفكير والاستدلال لأنهما يَعتبران أن وظيفة التفكير اجتماعية وحجاجية، وتذكر الباحثة: "إنّ وظيفة التفكير هي إنتاج حجج بهدف إقناع الآخرين، **وتقييم الحجج** التي يستخدمها الآخرون لإقناعنا."[44]

تتجلى هذه الوظيفة بوضوح في تفاعل الأقوام مع الرسالات السماوية ودعوات الرسل عليهم السلام ولذلك عالجت الباحثة في هذا الفصل من كتابها أشكال الاستدلالات وملاءمة الحجج ووثوقيّتها، بالإضافة إلى فاعلية التفكير الجماعي والفردي وآثار انحرافات التفكير، وأفهت بتطور المنظومة الحجاجية بإبراز الثوابت والمتغيرات في حجج الفريقين واستنتجت ضعف المنظومة الحجاجية للأقوام وقوتها لدى الأنبياء عليهم السلام فوظيفة الحجاج كما تقول: "باعتباره شكلا من أشكال الاستدلال العفوي الاستنباطي هو تحقيق الملاءمة من خلال تعزيز الفرضيات أو إضافتها أو استئصالها، ومجاله الحيوي هو الفرضيات الواقعية. لا تقوم الفرضية ... على

المجلد: (17)	العدد: (01)	السنة: 2025	صفحات المقال: 476–493	ISSN :9577 - 1112	EISSN : 2602 -5388

مفهوم السلامة المنطقية، ولكن على مفهوم التأكيد والقوة، وتستقي الفرضيات قوتها من جملة من العوامل، وتتشكل من خلال محتويات قضوية بدءا من المفهوم إلى العنوان فالمدخل."[45]

وهذا ما نراه في نموذج حوار سيدنا إبراهيم مع النمرود أو مع أبيه على سبيل المثال: قال تعالى في سورة مريم: ﴿**يا أَبَتِ إِنِّي قَدْ جاءَنِي مِنَ الْعِلْمِ ما لَمْ يَأْتِكَ فَاتَّبِعْنِي أَهْدِكَ صِراطًا سَوِيًّا (43) يا أَبَتِ لا تَعْبُدِ الشَّيْطانَ إِنَّ الشَّيْطانَ كانَ لِلرَّحْمنِ عَصِيًّا (44) يا أَبَتِ إِنِّي أَخافُ أَنْ يَمَسَّكَ عَذابٌ مِنَ الرَّحْمنِ فَتَكُونَ لِلشَّيْطانِ وَلِيًّا (45) قالَ أَراغِبٌ أَنْتَ عَنْ آلِهَتِي يا إِبْراهِيمُ لَئِنْ لَمْ تَنْتَهِ لَأَرْجُمَنَّكَ وَاهْجُرْنِي مَلِيًّا (46) قالَ سَلامٌ عَلَيْكَ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّي إِنَّهُ كانَ بِي حَفِيًّا (47) وَأَعْتَزِلُكُمْ وَما تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَأَدْعُوا رَبِّي عَسى أَلاَّ أَكُونَ بِدُعاءِ رَبِّي شَقِيًّا (48) فَلَمَّا اعْتَزَلَهُمْ وَما يَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَهَبْنا لَهُ إِسْحاقَ وَيَعْقُوبَ وَكُلًّا جَعَلْنا نَبِيًّا (49) وَوَهَبْنا لَهُمْ مِنْ رَحْمَتِنا وَجَعَلْنا لَهُمْ لِسانَ صِدْقٍ عَلِيًّا (50)**﴾ [سورة مريم: 43-50].

تذكر الباحثة في خطاب سيدنا إبراهيم لأبيه مجموعة حجج هي: الوحي، العلم، الحجة، الرشد[46]، مستنتجة غلبة الاستفهام على البنية الحجاجية لسيدنا إبراهيم، وقد وظّف استراتيجية قولية وفعلية وقدّم لقومه حجاجا بالفعل بتحطيمه للأصنام وفي هذا حجيّة كبيرة وجدٌّ ملائمة حسب ما انتهت إليه الباحثة، على غرار حجة نقضه مفهوم الأبوية كما تحتج بها الأقوام حيث تقول: "تتميز استراتيجية سيدنا إبراهيم في نقض مفهوم الأبوية، بتوجهه القصد نحو تقييم المصدر الأساسي الذي يستقي منه قومه قوة فرضياتهم وعقائدهم، وهو الآباء، فلم يكتف بوسم شرك القوم بالضلال، بل طال هذا الوسم آباءهم، وهو بذلك ينقض سمة أساسية من سمات مفهوم الأبوية وهو الوثوقية، فإذا كان الآباء، وهم مصدر المعتقد ومحل الاتباع في ضلال، فالأجدر أن يكون الأبناء أكثر ضلالا، لذلك بدأ بهم ووصف ضلالهم بالمبين."[47]

كما أنها تعرض أوجه الانحراف في استدلالات الأقوام وتبيّن مكامن الضعف في محاججاتهم: "إنّ انحراف التأكيد، أو نزعة تأكيد الحجج ليس شيئا يمكن أن يلغيه النّاس، فهو خاصية مهيمنة في التفكير، فعبر العديد من التجارب أظهر النّاس مرارا وتكرارا ميلا للنظر في الحجج التي تدعّم آراءهم وفرضياتهم، فحسب، كما بيّن أن الناس في الغالب يبحثون عن معلومات جديدة تدعم آراءهم."[48] وتوضح الباحثة أن تجربة سيدنا إبراهيم كانت حافلة بهيمنة القوة المادية كما تقول: "يدل التضعيف في حرف: الراء (في لفظ: حَرِّقُوهُ) على إمعان في إقصاء الآخر المختلف عن القوم عقديا، ثم إن عبارة: "فَأَلْقُوهُ فِي الْجَحِيمِ (97)"، في سورة الصافات، تدل على تسخير عال للإمكانات المادية، حيث يتخذ مفهوم القوة مظهرا ماديا مكينا."[49]

المجلد: (17)	العدد: (01)	السنة: 2025	صفحات المقال: 476–493	ISSN :9577 - 1112	EISSN : 2602 -5388

استثمرت الباحثة المقولات النظرية في سبر أغوار لغة القرآن الكاشفة عن الطاقات الاستدلالية الضعيفة للأقوام في مقابل الحجية والوثوقية التي يتمتع بها الأنبياء وخلصت إلى نتيجة جامعة بقولها: "كشف تحليلنا للحجاج عن ضعف الآلات الحجاجية للأقوام، وركونهم إلى نفس الحجج، وإلى القوة بديلا عن الحجج اللغوية، وذلك توخيا لمبدأ الجهد الأقل، ولكن أثر حجاجهم على الرسل كان ضعيفا، لأن حجج الرسل كانت قائمة على بُنى استدلالية قوية قائمة على معرفة بفرضيات الآخر وأفكاره، ولقد كان لهذه الحجج الأثر الأعظم في الأقوام، حتى إن لم يستجيبوا للرسل."[50]

كشف المنظور المعرفي الجديد عن إمكانية تفسير ضعف أو قوة حجة ما بناء على تتبع الطاقة الحجاجية التي يصوغها الذهن وفق تسلسل منطقي تقدمه طروحات نظرية الملاءمة وأكده تطبيق الباحثة "عائشة هدبم" على نماذج حجج الأنبياء وأقوامهم.

4. علم النفس المعرفي، العاطفة سبيلا لفهم النصوص:

أبرزَ كتاب "النبوة والتواصل" اشتغالا جديدا غير معهود في اللسانيات والتداولية وهو دور العاطفة في عمليات الاستدلال وتفكيك الخطاب والاكتساب المعرفي، حيث أظهرت الأبحاث في علم النفس المعرفي دور العاطفة في المعرفة ودور المعرفة في العاطفة، من خلال طُروحات كثيرة تبنتها الباحثة كنظرية التروع نحو الفعل ونظريات التقييم العاطفي ورد الفعل...إلخ.

1/ السيرورات العاطفية: تدرس الباحثة تبني المعتقد الديني لدى الرسل عليهم السلام والأقوام من خلال السيرورات العاطفية مستنتِجة أن العاطفة المهيمنة عند الأنبياء هي (التقوى)[51]، قال تعالى: ﴿**إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ نُوحٌ أَلَا تَتَّقُونَ (106) إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ (107) فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ (108)**﴾ [الشعراء: 106-108].

تقول: "تبدأ هذه السيرورة بعملية تقييم، حيث يدعو الرسل (نوح، إبراهيم، موسى، عيسى، محمد عليهم أفضل الصلاة والتسليم) أقوامهم إلى إدراك حدوث واقعة أساسية، وتقييمها بوصفها واقعة سلبية، هذه الواقعة هي عذاب الله أو عقابه."[52]

في المقابل تنزع سيرورات الأقوام نزوعا عكسيا مضادا للدعوة، حيث: "إن التركيز على عاطفة التقوى الدينية، ونزوع الخوف مسوّغ معرفيا، باعتبار أن هذه السيرورة العاطفية هي الأجدر أو الأكثر ملاءمة لتوصيف البعد العلائقي الديني بين العبد وربه (لتوحيد الله وعبادته)، ولكن الأقوام لا يتقون، فأكثر السياقات التي عرضناها فيها استنكارٌ لعدم تقوى الأقوام."[53]

يسمح فهم السيرورات العاطفية للأفراد والجماعات بفهم طريقة استدلالهم ووجهته وقد بيّن كتاب "النبوة والتواصل" ذلك بالنسبة للرسل وأقوامهم بوقوفه على تفاصيل حواراتهم ولغتها.

المجلد: (17)	العدد: (01)	السنة: 2025	صفحات المقال: 476–493	ISSN :9577 - 1112	EISSN : 2602 -5388

2/ العاطفة واللغة: عمدت الباحثة إلى دراسة العواطف المرتبطة بالنص من خلال التأثير الذي يُحدثه في المتلقي ومنه التركيز على العواطف الفنية التأثرية المتعلقة بأسلوب النص من جهة، وتفاعل المتلقي معه من جهة أخرى، ويلعب الذوق والخبرة الفنية لدى المتلقي دورا مهما في تحديد وجهة وشدة التأثر[54]. وقد استنتجت الباحثة تأثير القرآن الكريم في أصناف المتلقين (النبي صلى الله عليه وسلم، والمؤمنون مثل: عمر بن الخطاب، والمشركون: الوليد بن المغيرة، أبو جهل..)[55]. ولاحظَت أن المنظومة الحِسّية المتكررة لديهم جميعا هي منظومة السماع واستنتجت ما يلي:

"1/ يثير سماع القرآن سيرورة عاطفية، تبدأ بتقييم إيجابي أو سلبي، ويليها ردود فعل جسمانية: بكاء/ سجود.

2/ يتضح لنا من النصوص: العواطف التأثرية الفنية العالية التي تتمتع بها قريش، والتي أدت إلى الإيمان أو الإعراض عن الدعوة المحمدية.

3/ هذه العواطف الفنية العالية تمكّن لها ثقافة استماع قوية، أو لنقل بالمصطلح المعرفي، تمكّن لها: منظومة سمعية قوية لدى العرب بدءا من الرسول صلى الله عليه وسلم."[56]

أبرزت الباحثة من تحليلها للنماذج الكثيرة التي عرضتها واستجلائِها دلالات التكرار والألفاظ المستعملة كقول الوليد بن المغيرة: "والله إن له لحلاوة وإن عليه لطلاوة وإن أعلاه لمثمر وإن أسفله لمغدق وما يقول هذا بشر)"[57] ، إسهام العواطف الفنيّة في التلقي وتستنتج من خلال تحليلاتها في هذا المضمار أنه ابتداء من عهد سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم حدثت نقلة في المنظومة المهيمنة من البصرية في عهد الأقوام السابقة إلى السمعية، ولهذا التغيّر دور كبير في تحول المعتقد من الشرك إلى التوحيد، حيث تستنتج أن: " للمنظومة السمعية الدور الأساسي في هذا التغير، حيث كان للتشارك في المنظومة السمعية واللغوية بين سيدنا محمد عليه الصلاة والسلام وقريش، الأثر البالغ في استجابة قريش لدعوته، وهذا التشارك زاد من إبراز الفرضيات التي كانت غائبة أو مغيبة عند قريش، وقد بلغ طرفا الحوار: سيدنا محمد عليه الصلاة والسلام وقريش إلى اشتراك تام في المحيط المعرفي."[58] حيث يدفعُ تأثُّر المتلقي بما سمعه من القرآن إلى حدوث استجابة وتغيُّر على مستوى نظامه المعرفي (الذهن والعاطفة) وخاصة أن العرب أهل لغة وفصاحة.

يوضح لنا اشتغال الباحثة "عائشة هديم" على فصول من نظريات العاطفة فاعلية استثمار هذه الإمكانات المنهجية في تأويل النصوص بعمق، ثم إنها تقدم ــبتركيزها على التطبيق في مساحة واسعة جدا من النماذجــ حُجيّةً أكبر على نجاعة هذه الرؤية المنهجية التي تؤمن بها وتدعو لها العلوم المعرفية والبينية عموما، ويتجلى لنا في كتاب "النبوة والتواصل" سعي الباحثة إلى دراسة كل آية في مدونتها من هذه الجوانب العديدة كلها.

المجلد: (17)	العدد: (01)	السنة: 2025	صفحات المقال: 476–493	ISSN :9577 - 1112	EISSN : 2602 -5388

5. خاتمة:

إن الطابع التسلسلي المتدرج المفصل للنماذج التحليلية لكتاب "النبوة والتواصل" يجعل من الصعوبة بمكان اختصارها جميعها في صفحات محدودة نظرا لما ينجم عنه من إخلال وإبهام، ولكن الهدف المتوخى هو إضاءة الجوانب الجديدة التي أضفتها مقاربة هذه الباحثة، تيسيرا وإنارة لغموض هذا المجال على الباحثين. ومن خلال استقرائنا السريع لكتاب الباحثة الجزائرية "عائشة هديم" نخلص إلى جملة من النتائج هي:

- أبرز الكتاب إمكانية التعدد والتجسير المنهجي البيني بين التخصصات ونجاعة ذلك في توضيح كيفية اشتغال النظام الصوري والمنطقي للغة العربية على مستوى عالٍ من التجريد وهو النظام الذهني باستيعاب الحدود المنهجية والإجرائية لتلك المجالات المعرفية الأربعة في مقاربة النص القرآني بها وهي: الأنثروبولوجيا المعرفية، والبلاغة المعرفية والتداولية المعرفية وعلم النفس المعرفي.
- بَيّنت النماذج التي عرضناها في هذا المقال جدوى تطبيق نظرية الملاءمة ونظريات علم النفس المعرفي على اللغة العربية والقرآن الكريم، وأن الدراسات البينية يمكن أن تقدم قراءة جديدة ومتطوّرة لفهم النصوص وأن تستوعب زوايا عديدة منها في آن واحد.
- كشفت تفاوت توظيف الذهن واستكناهه لطاقات اللغة العربية من خلال استجلاء استدلالات المتلقين وعواطفهم (الأنبياء وأقوامهم وخاصة سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم وقومه) للخطاب الإلهي، فالذهن (الفكر) محمول على اللغة ولغة أهل قريش هي العربية فبها يفكرون ويستدلون ويُحاجِجون.
- أعادت رسم الحدود بين اللفظ والمعنى بتطبيقها على العربية من خلال مقولة الصريح والضمني.
- حاول الكتاب تقديم تصور جديد لفهم القرآن وأبرز أوجُهًا من إعجاز لغة القرآن في رسم التمثلات الذهنية للأمم السابقة وتحيينها للمتلقي المعاصر بأدوات العصر كما تجلى ذلك في مثال السلاسل السببية لقوم سيدنا موسى عليه السلام.
- يُعد كتاب "النبوة والتواصل" من المراجع المهمة للباحثين في هذه النظرية لأنه نقلها من مصادرها تنظيرا وتطبيقا معمَّقيْن وخاصة كتاب الملاءمة وكتاب عدوى الأفكار ومقالات "دان سبربر".
- كما يوصي هذا البحث بالانفتاح على المناهج الجديدة ومسارات البحث البينية المعاصرة لأنها تمثّل انحرافا عن التقوقع التقليدي والانغلاق على المسار البنيوي والنسقي وتقدم أفكارا جديرة بالبحث والتّقصي.

المجلد: (17)	العدد: (01)	السنة: 2025	صفحات المقال: 476–493	ISSN :9577 - 1112	EISSN : 2602 -5388

6. الهوامش:

[*] **عائشة هديم**: أستاذة محاضرة (أ) في جامعة امحمد بوقرة بومرداس، باحثة في مجال الدراسات القرآنية والتداولية والمعرفية من سنة 2004 إلى اليوم، حاصلة على شهادة الماجستير والدكتوراه في تخصص: قضايا الأدب والدراسات النقدية والمقارنة من جامعة الجزائر2 أبو القاسم سعد الله ومتحصلة كذلك على شهادة ليسانس ثانية في تخصص الترجمة الكتابية لعدد من اللغات هي: **1/ تداولية القول في نماذج من حوارات أولي العزم من الرسل 2/ النبوة والتواصل مقاربة معرفية لتجربة أولي العزم من الرسل 3/ مقالات في تداولية الخطاب القرآني وعلومه** بالإضافة إلى العديد من المقالات والمشاركات في فعاليات وطنية ودولية.

[1]– **المنظومية**: مصطلح معرفي يقصد به معمارية الذهن العصبية الداخلية (داخل الدماغ) وتقوم على ثلاث عناصر حسب ما يرى "جيري فودور" وهي: **المحوّلة** التي تقدم تأويلا حسيا، يليه: **النظام الطرفي** الذي يقدّم تأويلا أوليا، **والنظام المركزي**: الذي يقدم تأويلا نهائيا". ينظر: عائشة هديم، النبوة والتواصل، مقاربة معرفية لتجربة أولى العزم من الرسل، 2021، ط1، الأردن، دار عالم الكتب الحديث، ص 61. نقلا عن:

Dan sperber and Deidre Wilson, fodor' s frame problem and relevance theory: reply to chiape Kukla.Behavioral and brain Sciences19:530-532 , p530

بينما "يقوم تصور "سبربر" للمنظومية على منظومية معممة، فهو يرفض تصور "فودور" الذي يقابل بين سيرورات منظومية معرفية غير عقلانية، وسيرورات مركزية عقلانية. ويرى أن الذاكرة منظمة على شكل وحدات من المعلومات الملائمة بوصفها مفاهيم، فالإنسان يتمتع عفويا بقدرة عقلية على التعرف على المعلومة الملائمة. ينظر: عائشة هديم، 2018، نظرية الملاءمة نظرية ثورية في التواصل المقولات والامتدادات المفهومية، مجلة الخطاب، مخبر تحليل الخطاب جامعة تيزي وزو (الجزائر)، المجلد13، العدد 2. ص70.

[2] -Dan Sperber, Modularity and relevance: How can massively mind be flexible and context –sensitive, In the innate Mind: Structure and content. Edited by Peter Carruthers, Stephen Laurence, Stephen Stich, 53- 68, P 53- 54.

[3] -Dan Sperber, Deidre Wilson; La pertinence, communication et cognition, 1989, traduit de l'anglais par Abel Gerschenfeld et Dan Sperber, les éditions de minuit, p55. (Trad : Aicha Hadim).

[4]– صرحت الباحثة "عائشة هديم" بتبنيها لرؤية منهجية في مقاربة النص القرآني تغترف من علوم العصر مع مراعاة خصوصية النص القرآني من جهة ومراعاة الاختلاف بين الثقافة المُصدِّرة والثقافة المستقبلة لهذه النظريات من جهة أخرى، من خلال أعمالها، وكذلك في حوار أجرته في الإذاعة الوطنية من خلال برنامج "ضيف النسمات"، إثر فعاليات الملتقى الوطني الذي ترأسته والموسوم: (المنهج والنص القرآني حدود المقاربة وإشكاليات القراءة) والمنعقد يوميّ 07و08 نوفمبر2021. الحلقة موجودة على الرابط: https://my.radioalgerie.dz/dz-ber/node/473 .

[5]–عائشة هديم، النبوة والتواصل، مقاربة معرفية لتجربة أولي العزم من الرسل، 2021، ط1، الأردن، دار عالم الكتب الحديث،ص41.

[6]– للمزيد من التفاصيل أدعو القارئ الكريم لمشاهدة محاضرة الباحثة "عائشة هديم" على اليوتيوب بعنوان: **"القرآن والمقاربة التداولية والمعرفية، اشتغال وتأمل"**، التي أجريت ضمن أشغال الحلقة القرآنية الشهرية الموسومة بـــ **"ما أنزلنا عليك القرآن لتشقى"**، رابط الحلقة: https://www.youtube.com/watch?v=9u6PSfmlCR8

المجلد: (17)	العدد: (01)	السنة: 2025	صفحات المقال: 476–493	ISSN :9577 - 1112	EISSN : 2602 -5388

[7]- عائشة هدبم، النبوة والتواصل، ص76.

[8]- المصدر نفسه، ص77.

[9]- ينظر: نفسه، ص71-74.

[10]- ينظر: نفسه، ص80، نقلا عن: Dan Sperber and Deider Wilson, Pragmatics, op-cit p06

[11]- ينظر: نفسه، ص78.

[12]- نفسه، ص78.

[13]- جواد ختام: التداولية أصولها واتجاهاتها، 2016، ط1، عمان، دار كنوز المعرفة للنشر والتوزيع، ص73

[14]- عائشة هدبم، النبوة والتواصل، ص80.

[15]- نفسه، ص81.

[16]- ينظر: نفسه، ص80، نقلا عن:

Dan Sperber et Deider Wilson, La pertinence, op –cit, p189-191.

[17]- ينظر: نفسه، ص48.

[18]- نفسه، ص48.

[19]- ينظر: نفسه، ص49، نقلا عن: Dan Sperber, rudiments d'un programme …op-cit, p262.

[20]- ينظر، نفسه، ص53.

[21]- ينظر: نفسه، ص53.

[22]- ينظر: نفسه، ص183-195.

[23]- نفسه، ص201.

[24]- نفسه، ص225.

[25]- نفسه، ص203.

[26]- نفسه، ص204. لضيق مساحة المقال يمكن للقارئ العودة إلى كتاب "النبوة والتواصل" لفهم السلسلة مفصلة بالكامل لهذا النموذج في الصفحات 204 وما يسبقها ما يليها.

[27]- نفسه، ص53.

[28]- المقصود بالتراث **القبالي**: والقبالاه، هي مجموعة التفسيرات والتأويلات الباطنية والصوفية عند اليهود، والاسم مشتق من كلمة عبرية تفيد معنى التواتر أو القبول أو التقبل أو ما تلقاه المرء عن السلف، أي والتقاليد والتراث، أو التقليد المتوارثه، وكان يقصد بالكلمة أصلا تراث اليهودية الشفوي المتناقل فيما يعرف باسم الشريعة الشفوية. ينظر: منصور عبد الحكيم، حكومة الدجال، مجلد 1، ط1، القاهرة، دار الكتاب العربي، صفحة 556.

[29]- نفسه، ص239.

[30]- نفسه، ص239.

[31]- نفسه، ص42.

[32]- نفسه، ص250.

المجلد: (17)	العدد: (01)	السنة: 2025	صفحات المقال: 476–493	ISSN :9577 - 1112	EISSN : 2602 -5388

[33]- ينظر: نفسه ص88.

[34]- ينظر: نفسه، ص90.

[35]- ينظر: نفسه، ص91.

[36]- ينظر: نفسه ص90/89.

[37]- ينظر: المدونة ص97.

[38]- ينظر: نفسه ص93.

[39]- ينظر: نفسه ص98.

[40]- نفسه ص286.

[41]- نفسه، ص271.

[42]- نفسه، ص272.

[43]- ينظر: نفسه، ص272/271.

[44]- نفسه ص135.

[45]- نفسه ص386.

[46]- نفسه ص393

[47]- نفسه ص395.

[48]- نفسه ص135.

[49]- نفسه ص412.

[50]- نفسه ص440.

[51]- نفسه ص353.

[52]- نفسه ص354.

[53]- نفسه ص354.

[54]- ينظر: نفسه ص108.

[55]- نفسه ص368-372.

[56]- نفسه، ص371.

[57]- عائشة هديم، المصدر نفسه، ص، 368، نقلا عن: خالد محمد القضاة، الإعجاز التأثيري للقرآن الكريم، 2005، مقدم إلى مؤتمر كلية الشريعة السابع: إعجاز القرآن الكريم، جامعة الزرقاء الأهلية، (دت)، الأردن، ص 08.

[58]- المدونة نفسه ص440.

المجلد: (17)	العدد: (01)	السنة: 2025	صفحات المقال: 476–493	ISSN :9577 - 1112	EISSN : 2602 -5388

7. قائمة المراجع:

المراجع العربية:

- جواد ختام: التداولية أصولها واتجاهاتها، 2016، ط1، عمان، دار كنوز المعرفة للنشر والتوزيع.
- عائشة هديم، النوع والوطن، مقاربة معرفية لتجربة أولى النساء من الوطن، 2021، ط1، الأردن، دار عالم الكتب الحديث.

المقالات:

- عائشة هديم، 2018، نظرية الملاءمة نظرية ثورية في التواصل المقولات والامتدادات المفهومية، مجلة الخطاب، مخبر تحليل الخطاب جامعة تيزي وزو (الجزائر)، المجلد 13، العدد 2.

المداخلات:

- خالد محمد القضاة، الإعجاز التأثيري للقرآن الكريم، 2005، مؤتمر كلية الشريعة السابع: إعجاز القرآن الكريم، جامعة الزرقاء الأهلية، (دت)، الأردن.

مواقع الانترنيت:

- عائشة هديم، برنامج "ضيف النسمات" في الإذاعة الوطنية، رابط الحلقة: https://my.radioalgerie.dz/dz-ber/node/473. (تاريخ الدخول: 2024/04/17).
- "عائشة هديم"، محاضرة بعنوان: **"القرآن والمقاربة التداولية والمعرفية، اشتغال وتأمل"**، رابط الحلقة: https://www.youtube.com/watch?v=9u6PSfmlCR8 (تاريخ الدخول: 2024/04/12).

المراجع الأجنبية:

- Dan Sperber, Deidre Wilson ; La pertinence, communication et cognition,1989, traduit de l'anglais par Abel Gerschenfeld et Dan Sperber, les éditions de minuit.
- Dan Sperber, Modularity and relevance: How can massively mind be flexible and context-sensitive, In the innate Mind: Structure and content. Edited by Peter Carruthers, Stephen Laurence, Stephen Stich .
- Dan sperber and Deidre Wilson, fodor' s frame problem and relevance theory: reply to Chiappe & Kukla. Behavioral and brain Sciences .USA, 1996.